مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 02 –جويلية 2022 الصفحات: 53- 69

الكتابة الإبداعية في "رسائل من زمان كورونا" بين أصالة الأسلوب ومعاصرة المضمون

Creative Writing in "Letters from the Time of Corona" between Originality of Style and Contemporary Content

ميلود عرنيبة*
الأكاديمية الجهوية للتربية والتعليم، مراكش آسفي (المغرب)
molodarniba@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/30 تاريخ القبول: 2022/07/15 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث نصوصا تقوم أساسا على إعادة كتابة فنّ أدبي تراثي هو فن الترسل، فيتساءل عن سر التلقي المثمر الذي حظيت به في زمن الثورة التكنولوجية التي سرّعت التواصل بشكل مفرط؛ زمن "sms" و"المسنجر" و"الواتساب" والإيميل، زمن الكتابة المختصرة. وكيف استطاع هذا النوع الأدبي القديم، أو إن شئنا القول التراثي، أن يفرض نفسه في زمن الرواية والقصة؟ من أين تكتسب هذه الأنواع القديمة هذا التأثير الذي تمارسه على القراء ولا سيما المثقفين منهم؟ كيف عمل الكاتبان على إعادة كتابة فن الرسائل في عصرنا؟ هل رسائلهما مجرد محاكاة واستنساخ أم أن هناك جديدا ما واجتهادا ما هو الذي جعلها تلقى هذا التجاوب الكبير من قبل القراء المعاصرين حتى وإن كانت فنّا تراثيا تفصله عن عصرنا قرون عديدة؟ منطلقين من افتراض أساس وهو أن هذه الرسائل نجحت في كسب هذا الرهان بما توافر فيها من مقومات إبداعية وفكرية، ولما جمعت من إمتاع ونفع، ومن تأثير وإقناع معا.

الكلمات المفتاحية: الكتابة الأدبية- الرسائل- إعادة الكتابة- شعرية الكتابة الرسالية.

Abstract:

This research studies texts, based mainly on rewriting the art of transmission. It probes the secret of the reception of these texts that prevailed at the time of the technological revolution that accelerated communication excessively: the time of network services like "s.m.s.", "messenger", "whatsapp" and e-mail, i.e., the time of short writings. Moreover, the study shows how this ancient literary genre was able to withstand the supremacy of the novel and the story that time. From where do these ancient genres acquire this authority, which influences readers, especially the educated ones? How did the two writers rewrite the art of letters in present time? Are their messages mere imitation and reproduction? Or, is there something original and a renewal in their writings that made the art of message writing receives such a great response from contemporary readers, even if it is a heritage art separated from our era by many centuries? Starting from a basic assumption, which is that these messages succeeded in winning this challenge due to the availability of creative and intellectual elements in them, and because of the enjoyment and benefit they embodied.

Keywords: Literary writing, messages, rewriting - poetic writing messages.

* المؤلّف المراسل

مقدمة:

شكّل الترسّل[1]، إلى جانب الخطابة والمناظرة وأنواع أخرى، أحد أبرز فنون الأدب العربي القديم في شقّه النثري حتى عدّ بعض الباحثين كتابة الرسائل "ظاهرة عربية خالصة"[2].وقد شكلت مضمارا تبارى في ساحته فرسان الكلمة النثرية من أمثال الجاحظ، وعبد الحميد الكاتب، وابن العميد، وابن الخطيب، وابن زيدون...حتى نافس هؤلاء فرسانَ الشعر وزاحموهم المكانة وأثبتوا أن للنثر سحره وجماله الذي لا يقل عن سحر وجمال الشعر[3]. وكانت الرسائل من أبرز وسائل التواصل سواء بين الأحباب والأقارب، وهذا الشق أُطلق عليه "الرسائل الإخوانية"، أم في المقامات الرسمية؛ أي بين الملوك والوزراء والأمراء والخلفاء، وهذا النوع عُرف بـ"الرسائل الديوانية"، وبصفة عامة فقد أطلق مصطلح "الرسالة" على أنواع مختلفة من الكتابة "منها المكاتبات المتبادلة بين رجال الحكم أو أفراد الناس أو بين هؤلاء وأولئك"[4]. وإلى جانب الوظيفة التواصلية كانت الوظيفة الأدبية-الإمتاعية للرسائل حاضرة بقوة، ولا سيما مع بداية أواسط العصر الأموي "عندما أخذ كتابها يعملون الفكر قبل كتابتها وظهر أثر ذلك في مضمونها دقة وعمقا في التفكير وإحكاما في العبارة"[5]؛ لأن الإنسان العربي يومها كان محبا للإبداع متذوّقا له، عاشقا للأسلوب الأنيق الرفيع، به يتواصل ويتفاعل، وينفر من الأسلوب التقريري والعامي والسوقي، وينأى عنه.

وقد بلغت الكتابة الترسلية أوجها مع عبد الحميد الكاتب الذي قصد في رسائله إلى الأدب قصدا فقد "مضى يدبج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل"[6]، وقد كان هذا نهج سالم أيضا؛ فالكاتبان معا عنيا بالقيم الجمالية وأساليب البلاغة من طباق وتصوير وغيرهما "حتى يؤثرا في أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم"[7]. وظلت الرسائل كذلك إلى عهد قريب مزدوجة الغاية؛ تضطلع بدورها في مدّ جسور التواصل، وتُشكّل فرصة لكتّابها ليُبرزوا براعتهم في الإنشاء، ويستعرضوا قدراتهم على تصريف ضروب البيان وتنميق أشكال الكلام، وتدبيج أنماط القول.أذكر أنه كانت هناك مقدمات أدبية نحفظها عن ظهر قلب؛بعضها كان منشورا في كتب بعناوين من قبيل "كيف تكتب رسالة"، نفتتح بها رسائلنا أحيانا، ونجتهد في ترصيع مقدمات خاصة بنا في أحيان أخرى.

أما في العقدين الأخيرين فقد هيمنت وسائل التواصل الحديثة، وظهرت أشكال تواصلية أخرى سريعة ومختصرة، تعتمد ترميزا لغويا لا يهتم بحسن العبارة ولا بجمال الأسلوب، غايته الأولى تواصلية خالصة، فضاعت الوظيفة الجمالية للرسائل وفُوّتت معها فرصة تطوير المهارات الإنشائية، ولا سيما بين الشباب الذين يشكلون الفئة الأكثر تواصلا بهذه الوسائل التي أصبحنا نعثر على آثارها، من حين لآخر، في إنتاجات تلاميذنا داخل الفصول الدراسية، وهكذا بدأت آفة النسيان تنشر أجنحتها على هذا النوع التواصلي-الإبداعي بثوابته المعروفة الشكلية والموضوعية على حد سواء.

وفي القرن الواحد والعشرين بينما كان الإنسان يعيش مزهوا بنفسه، معتدّا بما وصل إليه من تقدّم وتطور في مختلف مجالات الحياة، جاءه امتحان وابتلاء جائحة كورونا فأثبت له حقيقة ضعفه، وكشف له هشاشة حضارته، وجلّى له عجزَه، وقلة حيلته، وأظهر له أن مركوبه لم يكن حصانا أدهم كما توهم، وإنما كان مجرد حمار أعرج وأصم. فكانت

الصدمة قوية، والضربة قاصمة، والمصيبة مهولة، فأحجم عن الكلام ذوو الحجى وأرباب النهى، وبالمقابل أقدمت التفاهة مندفعة وقد أخذتها العزة بالاثم، فهرف أصحابها بما عرفوا وبما لم يعرفوا، وفجأة ظهر من انتحلوا صفات الأطباء والخبراء في جميع المجالات، ولم يسلم المجال الثقافي بدوره؛ إذ عجّ الفضاء الأزرق (الفيسبوك) الذي له نصيب وافر من "الزرقة"[8] بالمعنى العامي، بمدّعي الأدب والعلم الذين لم يتورعوا عن إطلاق الألقاب الكبيرة على أنفسهم، من قبيل "الشاعر"، و"الدكتور"، و"الكاتب"، وهلم جرا، ادعاءات كاذبة تترا.

ومن وسط هذا الركام المظلم الذي غشي وسائل التواصل الاجتماعي في زمن الحجر الصحي كانت التباشير تأتي بمداد أقلام كتّاب أفذاذ أفراد؛مصابيح تشع فتبدّد السواد، وهكذا طلع علينا الكاتبان محمد كروم ومنير المنيري برسائل دبّجاها وفق ثوابت الرسالة القديمة وأركانها؛ تبادلاها على الفضاء الأزرق "فيسبوك"، سرعان ما كثُر متتبعوها ومنتظروها الذين كانوا بلوعة الشوق يترقبونها، فيسألون عنها إذا تأخرت، ويتفاعلون معها قراءة وتعليقا إذا نُشرت.

فما الذي حقّق لهذه النصوص التي تقوم أساسا على إعادة كتابة فنّ أدبي تراثي هذا التلقي المثمر في زمن الثورة التكنولوجية التي سرّعت التواصل بشكل مفرط؛ زمن "sms" و"المسنجر" و"الواتساب" والإيميل، زمن الكتابة المختصرة، وأحيانا بأشكال لغوية مستحدثة غريبة مثل ما بات يعرف بـ"العرنسية"؟ ألا يزال لهذا النوع الأدبي القديم، أو إن شئنا القول للتراث، حضور بيننا؟ من أين تكتسب هذه الأنواع القديمة هذا التأثير الذي تمارسه على القراء ولا سيما المثقفين منهم، حتى في زمن هيمنة القصة والرواية المعاصرتين؟ وما الذي تعنيه إعادة كتابة فن الرسائل في عصرنا؟ أهي مجرد محاكاة واستنساخ أم أن هناك جديدا ما واجتهادا ما من قبل الكاتبين هو الذي جعلها تلقى هذا التجاوب الكبير من قبل القراء المعاصرين حتى وإن كانت فنّا تراثيا تفصله عن عصرنا قرون عديدة؟ في اعتقادنا أن هذه الرسائل نجحت في كسب هذا الرهان بما توافر فيها من مقومات إبداعية وفكرية، ولما جمعت من إمتاع ونفع، ومن تأثير وإقناع معا.

1- الكتابة المفتونة بذاتها:

تتعالى بعض الكتابات الحديثة عن مقولة "النقاء النوعي"، فتهدم الحدود الفاصلة بين الأنواع، وتقيم مقامها تخوما مشتركة بين هذه الأنواع فتتيح لكل واحد منها الانفتاح على الآخر، حتى وإن كانا من جنسين مختلفين، كما هو الحال بين النقد والإبداع. وهذا الاتجاه الحديث الذي ينفتح فيه النقدي على الإبداعي والإبداعي على النقدي هو ما بات يعرف بالتخييل النظري la fiction théorique. "يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ بِمُحَاوَلَةٍ لِتَعْزِيزِ نَقْدٍ مُبْدِعٍ حَقًّا، مُدَشِّنًا طُرُقًا جَدِيدَةً لِلْكِتَابَةِ"[9]، ويرجع الفضل في تسمية هذا النهج إلى المحلل النفساني الفرنسي بيار بيار[10]، وفي النقد العربي تشكل تجربة الكاتب المغربي عبد الفتاح كيليطو نموذجا ممثلا لهذا الاتجاه؛ إذ تقدم نصوصه متعة مزدوجة، من خلال النصوص الإبداعية التي يختارها للتحليل من جهة، ومن خلال كتابته هو عن هذه النصوص باعتبارها كتابة نقدية-إبداعية.

وكثير من فقرات "رسائل في زمن كورونا" يمكن إدراجها تحت هذا الاتجاه الذي لا هو سردي خالص، ولا هو نقدي محض، ولكنه يقع في منطقة وسط أو بين-بين.

فالكاتبان، وهما ينتجان نصوصا إبداعية، ناقشا مجموعة من القضايا المرتبطة بالأدب والفكر أي بالإبداع نفسه، تتعلق بموضوعة الكتابة والقراءة ذاتها، بمعنى أنهما يتيحان للغة الأدبيةأن تتحدث عن نفسها، وتناقش إشكالاتها من داخل خطابها نفسه، دون أن تحتاج إلى خطاب ينفصل عنها، ويتجلى ذلك من خلال النقاط الآتية:

- يُشيد الكاتبان بدور الكتابة والقراءة وأهميّتهما في الحياة، ويريان بأن الحاجة إليهما ملحّة في زمننا أكثر من أي وقت مضى، وذلك من أجل محاربة التفاهة التي انتشرت فيه انتشار النار في الهشيم، وللوقوف سدا منيعا أمامها، أو على الأقل التخفيف من آثارها، فالحياة في رأيهما لا تستقيم ولا تُحتمل إلا بالقراءة والكتابة، وهذا ما عبّر عنه محمد كروم بقوله: "لن أنسى تغنّيك الدائم بالكتابة وقدرتها على قهر التفاهة والسفاهة، وجعل الحياة محتملة"[11]، ولكي تؤدّي الكتابةُ هذا الدّور بنجاح لا بدّ لها من شروط تخصّ الشكل والمضمون معا؛ بمعنى أن تأثير الكتابة في القرّاء وتحقيقها للتلقي المثمر "لن يتأتّى بترك الحبل على الغارب، ولا بصيد الشاذ والغريب، ولكن باللفظ القريب، والمعنى العجيب"[12]، ولعل هذا الشرط هو من خصائص الكتابة الترسلية منذ القديم؛ إذا كانت طائفة من كتابها "تعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها (..) مع دقة التعبير وتجلية عن المعنى، والفقه الحسن بمداخل التأثير في نفس القارئ"[13] حتى تحققّ الكتابة غايتها وهي التأثير في المتلقي وإثارة إعجابه. وهذا ما حاول الكاتبان أن يلتزما به في رسائلهما كي يقدما نموذجا عمليا لما يتحدثان عنه نظريا، يقول محمد كروم: "وقد عوّلنا في مخاطبتكم على قصر العبارة، وحسن الإشارة، وتجنبنا الاستطراد، لأنه أداة العامة والسّوقة، ورواد الحلقة، ومن السلف من جعله ميسما على ضعف العقول، ولازمة من لوازم الولدان"[14]، وفي هذا الكلام دليل على استحضار الكاتب لآراء القدامى والسير على منوالها.

- كما يقدم الكاتبان قراءة نقدية لما يروج في الساحة الثقافية عموما، والأدبية منها على الخصوص، في زمن الوباء، ويوجّهان نقدا لاذعا لجلّ ما أُلّفَ في هذه الفترة الحرجة من قصص وروايات، فهو في رأيهما "بعيد عن الفن والذوق العالي، قريب من ركيك الأمالي"[15]، ولكن النّاس استساغوا هذا الغث لأنّهم، في اعتقاد الكاتبين، افتقدوا الذائقة الأدبية التي لا تتأتّى لأي كان، ولكنها تُتَعلم وتُربّى، وهذا ما غاب عن العموم، فلو علموا ذلك حقيقة "ما أطلقوا العنان لكلّ من هبّ ودبّ، حتى اختلط الحابل بالنابل"[16].

- وقد شكلت الرسائل كذلك فرصة للكاتبين ليقدما قراءات نقديّة لبعض الأعمال الأدبية، وهي مقاطع نقدية وافية لمقومات القراءة النقدية؛ إذ استغرقت صفحات عديدة أحيانا، كما هو الحال مع رواية "نساء بين متاهات السحر والمجهول" للروائية المسماة وداد الرودانية، التي تناولها الكاتبان من خلال الرسالتين 15 و 16، فناقشاها شكلا ومضمونا، ويُضاف إلى ذلك تقديمهما لترجمة بعض الشعراء بالمعنى النقدي للترجمة، كما فعلا مع الشاعرين أحمد الولتيتي (ص.61، 62، 65، 66)، ومحمد ربيع (ص71-72).

- ومما يلحّ عليه الكاتبان في مجال القراءة والكتابة ضرورة العودة إلى أمّهات الكتب القديمة، والانكباب على قراءتها وتفحّصها ودراستها، وهذا، في اعتقادهما، أمر لازم في تكوين القارئ تكوينا جيّدا؛

فهذا المنيري يُخبر صاحبه بأنّه منكب على قراءة أمهات الكتب في البلاغة والشعر، فيقول له: "معي الجرجاني ببلاغته المأثورة، والجاحظ بخطبه وأقواله المنثورة، وأبو حيان صاحب المقابسات، والمعري صاحب اللزوميات"[17]، وفي موضع آخر يُقرّ لصاحبه كروم باطلاعه هو الآخر على مثل هذه الكتب: "وأنت المطّلع في كتب العرب والأعاجم والبصائر والدخائر، ما لا يستوفيه كتابي إليك من أخبار الصداقة والصديق"[18].

لقد شكل تناول الكاتبين لهذه القضايا أحد أبرز سمات التجديد في إعادة كتابة الرسائل؛ إذ تجاوزا فيها أغراض المكاتبات العادية من إخوانيات وصداقات إلى أغراض أخرى ترجما من خلالها مشاغل المثقفين الغيورين على واقعهما الثقافي المهتمين بأعطابه، المعنيين بقضاياه الأدبية والفكرية والسياسية نقدا وتحليلا واقتراحا لبدائل إصلاحه.

2- الاختيارات التراثية وجماليات الكتابة:

إن "رسائل من زمان كورونا" يمكن عدّها رسائل أدبية، لأنها تتجاوز الغرض التواصلي/الإخباري الذي تتغياه الرسائل العادية إلى غايات أخرى تندرج في مجال الإنشاء الأدبي الذي تتحول فيه كتابة الرسائل إلى نمط كتابي إبداعي، يتم فيه استعراض أساليب الكتابة الإبداعية بين الكاتبين في شكل حواري يكون فيه "كل طرف من طرفي المحاورة أي الرسالة الأولى أو الثانية دافعا إلى إتمام الكتابة في نفس الغرض"[19] الذي كتب فيه الطرف الأول، إما بطريقة ضمنية، أو من سؤال مباشر يوجهه أحد الطرفين إلى الآخر، وقد كانت هذه عادة الكتاب الأدباء قديما وديدنهم إذ كانوا "يتكاتبون بالمسائل إما على سبيل الاستفهام وإما على سبيل الامتحان والتعجيز"[20].

ومن المعلوم أن لكل نصّ ذاكرته المرجعية التي يعود إليها ويتشرّب منها أساليبه ويمتح منها معانيه، وإذا كان الكاتبان قد اختارا الكتابة وفق نمط أدبي تراثي مشهور هو أدب الترسل، فإن رسائلهما اتخذت من نصوص التراث المختلفة مشارب تستقي منها مادّتها وأسلوبها معا، وتمتح منها اقتباسا وتضمينا وتمثلا، ويمكن رصد هذه المشارب على النحو الآتي:

2-1- القرآن الكريم: يُعد القرآن الكريم النص المحور وقطب الرحى في الثقافة العربية الذي دارت حوله جلّ كتابات المتقدمين، وقد عُدّ الاقتباس منه من تقاليد الكتابة عندهم، فكانوا يتبركون به من جهة، ويُحلّون به نصوصهم من جهة ثانية، ويستشهدون به ويحاجون، بعدما اعترف له القاصي والداني بتفوقّه، وعجز البشر على الإتيان بمثله، وهم في ذلك يستنون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ فالناظر في رسائله، ولا سيما إلى ملوك الأعاجم من أهل الكتاب، يجد فيها القرآن الكريم، كرسالته إلى هرقل[21]. والكاتبان لم يخرجا عن هذا التقليد فوشّحا نصوصهما ببعض الآيات القرآنية الكريمة، وقد سلكا ثلاثة مسالك في توظيف هذه الآيات:

الأول هو تضمينها كلامهما وإدراجها في سياقه دون الإشارة إلى ذلك، كما هو الحال في الأمثلة الآتية:

"فزين لهم أعمالهم"[22]، إشارة إلى قوله تعالى:{فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} (النحل: 63)

"ألبسهم لباس التقوى"[23]، إشارة إلى قوله تعالى: {يابَنِي آدَمَ قَدْأَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِيسَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ} (الأعراف: 23).

"لا يمنعون الماعون"[24]، إشارة إلى قوله تعالى: { وَيَمْنَعُونَالْمَاعُون } (الماعون: 7)

"من النساء القانتات العابدات السائحات" إشارة قوله تعالى: {مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَات وَأَبْكَارًا } (التحريم: 5).

والمسلك الثاني هو الإشارة إلى بعض الآيات ونسبتها إلى القرآن الكريم دون عزلها عن كلامهما، كما في المثالين الآتين:

الأول هو قول كروم: "وقد علمت من التنزيل أن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن البنين من زينة الحياة"[25]، وهما إحالتان على التوالي على الآية 39 من سورة النجم، والآية 49 من سورة الكهف.

والثاني في قوله: "وهذا كتاب الله جلّ جلاله، أنبأنا أن رب العزة لم يستحي أن يضرب المثل بالباعوض والنمل، والفيل والنحل، وأن يشبه بالحمار الغبي الجاهل، أو الخائف الوجل، والمكذب بالكلب، والموتى بالجراد، وجعل للحمير زينة"[26]، وفي هذا إشارات على التوالي إلى الآيات: 26 من البقرة، 18 من النمل، 1 من سورة الفيل، 68 من النحل، 5 من الجمعة، 176 من الأعراف، 7 من القمر، 8 من النحل.

والمسلك الثالث هو الإشارة إلى كلام الله تعالى باللفظ وعزله عن كلام المتحدث، كما في قول المنيري: "لقول الله عز وجل:{فَأَمَّا الزَّبَدفَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاس فَيَمْكُث فِي الْأَرْضِ}"[27]، ووضعه إحالة تشير إلى الآية 17 من سورة الرعد.

إن هذا الحضور القرآني في الرسائل يلبسها سربالا من لبوس الكتابة التراثية التي كانت تجعل من القرآن الكريم مرجعا لها على الرغم من تشعب مشاربها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يظهر عناية الكاتبين، باعتبار عقيدتهما الإسلامية وتكوينهما التراثي، بالقرآن الكريم الذي كان يُعدّ حفظه في الكُتّاب منذ السنوات الأولى من ثوابت تربية الأبناء في الأجيال السابقة قبل أن يتمّ تعويض الكُتّاب بالروض، والقرآن بالأغاني والأناشيد بلغات أجنبية، ولا يخفى ما في هذا الأمر من إهمال لكتاب الله وابتعاد عنه.

2-2- الشعر: لقد كان الشعر ديوان العرب الذي لا علم أصح عندهم منه، وقلّما تجد كتابة قديمة تخلو من التمثل بأبياته، والاستشهاد بها، وهذه أيضا شكّلت إحدى اللبنات الأساس في النّصية القديمة؛ فالناظر في كتب القوم، على اختلاف مجالاتها، يجد أن بطونها تعج بالأبيات الشعرية لفحول الشعراء العرب، وكأن الكتابة عندهم لا تعتبر ولا تصحّ إلا بوجود الشعر فيها، ولم تخرج الرسائل عن هذا التقليد الكتابي؛ فقد "فطن الكتّاب منذ عصر عثمان بن عفان إلى تزيين رسائلهم بأبيات من الشعر يأتون بها في أولها أو آخرها أو أثناءها"[28]، سواء أكانت من نظمهم أم لغيرهم، وظل هذا التقليد حاضرا في كتابة الرسائل خلال العصور التالية؛ إذ عدّ زكي مبارك من خصائص الرسائل في القرن الرابع "الحرص على تضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار الأمثال"[29]. وقد حافظ الكاتبان على هذه السنة الكتابية، فوجدناهما يتمثلان في العديد من المواضع بالشعر، والمتمعّن في هذه المواضع يجد أن هذه الأبيات لم يتمّ إقحامها قصرا، ولم يجر إدماجها بطرا واستعراضا، وإنما أُحسن توظيفها في سياقات مناسبة جعلتها تبدو منسجمة مع النص ومن صميمه إذ لا يكتمل معناه إلا بها، وربما كان هذا هو ما يميز توظيف الكاتبين للشعر في رسائلهما

عن توظيف بعض القدامى ولا سيما في العصور الوسيطة؛ إذ عد النقاد ذلك "من الحلي الفنية"[30] التي غايتها تزيين الكلام وتنميقه. ويمكن رصد المواضع التي استحضر فيها الكاتبان الشعر كما يأتي:

قول المتنبي: وَضاقَتِ الأَرضُ حَتّى كانَ هارِبُهُمْ
**إِذا رَأى غَيرَ شَيءٍ ظَنَّهُ رَجُلا (ص.5)

قول علقمة: وكلّ حصن وإن طالت سلامته
**على دعائمه لا بد مهدوم (ص.9)

وقول علي بن أبي طالب:

ما أَكثَرَ الناسَ لا بَل ما أَقَلَّهُمُ ** اللَهُ
يَعلَمُ أَنّي لَم أَقُل فَندا

إِنّي لَأَفتَحُ عَيني حينَ أَفتَحُها**
عَلى كَثيرٍ وَلَكِن لا أَرى أَحَدا (ص.16)

وقول المتنبي: وَما الحُسنُ في وَجهِ الفَتى شَرَفا لَهُ
** إِذا لَم يَكُن في فِعلِهِ وَالخَلائِقِ (ص.25)

وقول صفي الدين الحلي:

لَمّا رَأَيتُ بَني الزَمانِ وَمابِهِم **
خِلٌّ وَفِيٌّ لِلشَدائِدِ أَصطَفي

أَيقَنتُ أَنَّ المُستَحيلَ ثَلاثَةٌ **
الغول وَالعَنقاءُ وَالخِلُّ الوَفي

والمواضع كثيرة، غير أن ما يلاحظ على توظيف الشعر هو أن أغلبَه جاء في معرض الاستشهاد والتمثل دون أن يشير الكاتبان إلى أصحاب الأبيات في جل الأحيان، كما أن أغلبه، إن لم يكن كله، من شعر الفحول القدامى، وهذا الأمر يكشف عن الثقافة التراثية التي يتمتّع بها الكاتبان ومن جايلهما ولا سيما جيل محمد كروم؛ إذ كان تزود الذاكرة من قدر مهم من الشعر أساسا ثابتا في تكوين الكتّاب عموما،والمهتمين بالأدب منهم في المقام الأول.

2-3- المعجم الصوفي: تمتح الرسائل من المعجم الصوفي-العرفاني، وتوظف بعض مفاهيمه في سياقات متعددة، ولعل من الأسباب الثاوية وراء هذا الاختيار كون الرسائل كُتبِت في رمضان الكريم، وهو الشهر المعروف بموسم العبادة والإقبال على الله، أضف إلى ذلك أن الكاتبين معا قضيا سنوات في مدينة تارودانت التي تحضر بقوة في رسائلهما، وهي مدينة معروفة بالزوايا والأولياء؛ لذلك فمن الطبيعي أن تتزيّى هذه الكتابة ببعض من كلام السادة الصوفية، أصحاب القلوب الصافية، والمواجيد العالية، ولا سيما أن أحد الكاتبين وهو منير المنيري كان بيته يُعرف بالزاوية، وهو لقب لصيق بهذا المنزل لأسباب عديدة أهمها نزول الأصدقاء فيه واجتماعهم داخله، لذلك وجدنا الأستاذ كروم ينعته في أول رسالة بـ"الزاوية العالية"[31]، كما أن الأستاذ منير هو الآخر لم يجد حرجا في أن يسِم نفسه بـ"شيخ الزاوية اليانعة، وطريقتها المثلى الواسعة"[32]، وينعت صاحبه بلقبي القطب والعارف، لكن ليس قطب وعارف الطريقة والسلوك، ولكن "قطب القصّ والرواية، والرحلة والدراية، والعارف بأحوال البلاد والعباد".

ويحضر المعجم الصوفي أيضا من خلال المنام أو الرؤيا التي تُعد من معتمدات السلوك الصوفي، يقول المنيري في الرسالة الثامنة التي استهلها بقوله: من مقرّ الزاوية بالحضرة الرودانية: "اسمح لي بما تُمليه المشيخة، أن أحدّثك بما يعتريني في زمن الكرونا والعزلة المحمودة من فتوحات وتجليات إنسية، في حضرة الزاوية البهية، فقد رأيت فيما يرى شبه النائم والمستفغر الهائم، أن الدنيا خراب، وأن

رفاق الأمس في غياب، وقوارب النجاة بعيدة، وأعمدة المحن قريبة، ولما استيقظت من غفوتي تأملت رؤيتي، فوجدتها عين الحق واليقين، وفاتحة زمان مشين، زمان لا زميل فيه ولا كريم، ولا راع للودّ القديم"[33].

إن حضور هذا المعجم الصوفي يضطلع، في اعتقادنا،بثلاث وظائف؛ الأولى هي منح الخطاب مسحة دينية روحانية تتناسب والشهر الفضيل الذي صيغت فيه أغلبها، والثانية هي إضفاء جمالية على النص من خلال التنويع في أساليبه ما بين قديم وحديث، والثالثة هي تمرير بعض تعاليم الدين الإسلامي السمح وفق منهاج عرفاني وشرح بعض قواعد السلوك، والمقطع الآتي يوضح ذلك بجلاء، يقول كروم مخاطبا صاحبه: "فالزم زاويتك، وكسّر عودك، وقتّر مأكلك، واغضض بصرك، وأدمن قراءة الأسفار، واهرب من لباس الكفار هروبك من كورونا والنار. والبس الصوف على الصفا، واتبع منهاج المصطفى"[34]، وفي موضع آخر يشرح شروط المشيخة قائلا: "لأن شيخ الزاوية لا يصير شيخا مقدّما، ما لم يكن متفهما، ولا تُشدّ إليه الرحال، وتقصده النساء والرجال، على الحديد والبغال، إلا إذا كان حليما صبورا، وعلى المشقة جسورا، يقرأ النصوص، ويميّزها تمييز الفصوص، بل يحضنها حضن الدجاجة بيضها، ويكتم إرهاقها كتمان الحليمة غيظها"[35].

وتضاف إلى هذه الوظائف الثلاثة وظيفة أخرى وهي إضفاء مسحة من الفكاهة والمزاح تكسر جدية الرسائل، ويتضح ذلك خصوصا في مطالع الرسائل إذ يصف كلّ طرف صاحبه بأوصاف لا تخلو من طابع فكاهي، كما في الرسالة الثالثة عشرة التي يصف فيها كروم صاحبه بـ"الزعيم والشيخ، محب الزعتر والشيح"، وفي الرسالة الخامسة عشرة يناديه بـ"شيخ التوابع، ومثير الزوابع"، أما المنيري فينعت صاحبه بـ"شيخ الشباب، ومؤنس ذوي الألباب"[36]، وفي الرسالة الواحدة والعشرين يخاطبه كروم بـ"الشيخ الروداني، مضيف السليكاني"، إشارة إلى استضافته لشاب من السنيغال، كما يصفه أيضا بـ"لابس القطمير، ومربي الطير"[37].

2-4- الأمثال: تحضر الأمثال في الرسائل بشكل لافت للانتباه، وقد أشرنا سابقا مع زكي مبارك إلى أن الحرص على تضمين الرسائل مختار الأمثال من سنن القدامى، ونلاحظ أن أغلب الأمثال التي أوردها الكاتبان أمثال تراثية تكشف عن ثقافتهما التراثية الراسخة، ومدى اطلاعهما على كنوز تراثنا؛ فهما ما فتئا يوردان بعض الأمثال الذائعة الصيت، ويوظفانها في مقامات تتناسب وتعزيز المعنى الذي وردت في سياقه، نذكر على سبيل المثال، لا الحصر، قول الأستاذ كروم لصاحبه: "وإنا نراك ورّطتنا بملغوم الأسئلة، وجررتنا إلى ساحة كان ودنا أن تكون خاتمة هذه الكتب. ولكن السيف سبق العذل"[38]. وكذلك قوله، في معرض رده على اتهام صاحبه له بالعجز عن استيفاء الكلام عن إحدى القضايا: "ذلك أن لكل مقام مقالا"[39]. وفي تعليقه على بعض من خرجوا في وسائل التواصل للحديث عن كورونا والذين ينعتهم بالتافهين، وكان ذلك سببا في إدانتهم وتعريضهم للمحاكمة والسجن، يقول: وحق عليهم قول السلف: على نفسها جنت براقش"[40].

ومما لا شك فيه أن ذكر الأمثال في معرض الكلام من تقاليد الكتاب القدامى، يمنح الرسائل هنا هذا الانتماء إلى حضرة التراث، ويكشف الثقافة التراثية للكاتبين ومدى إلمامهما بميراث الأجداد، الذي أبان عن قدرة على مواكبة عصرنا وما استحدث فيه.

3- مقومات شعرية الكتابة في الرسائل

3-1- عناصر البديع

لقد شكلت الرسائل، كما أسلفنا الذكر، مضمارا للتباري في الإنشاء واستعراض القدرات على تصريف أفانين الكلام وتنميق القول، إلى حد يمكن معه القول بأن هذا الغرض أصبح مقصودا لذاته في الكتابة الترسلية؛ إذ لم تكن أساليب النثر الفني مجرد أشكال تزيينية لتوشية الخطاب في مقام الترسل وتجميله، "بل ارتبطت وثيق الارتباط بالتخاطب الرسائلي"[41]، حتى عدت من ركائزه التي لا يقوم إلا بها، ولا سيما في شقه الأدبي؛ إذ كانت هذه الأساليب من سجع وجناس وموازنة وغيرها هي التي "ترسم الحدود الفاصلة بين التحاور اليومي والتحاور الأدبي في الأغراض نفسها"[42]، وتميز الكتابة الفنية عن غيرها من خطابات التواصل العادية، وتعبر بها إلى بلاغة الإمتاع التي تمنح النصوص النثرية شعرية لا تقل عن شعرية النظم وقدرة على التأثير في قرائها.

والمتأمل في "رسائل من زمان كورونا" يجد أنها تؤسس شعريتها على مقومات بلاغة الإمتاع التراثية المعهودة من قبيل:

1- السجع: ظاهرة صوتية تقوم على توافق الفواصل، وقد كان دخوله إلى الكتابة النثرية مبكرا في الثقافة العربية حتى "جُعل منهاج الترسل العام في القرن الرابع الهجري"[43]. وقد سار الكاتبان على هذا المنهج في القصد إلى السجع في رسائلهما، ونمثل له ببعض المقاطع منها:

"أما من شغلتهم حرفة الأدب، فراحوا يستنطقون السطور، للكشف عن كلّ ادعاء مستور، همّهم الأوكد، وهدفهم الأوحد، أن يقنعوا الناس أنهم تحدثوا يوما عن قوافل الغبار ومسيرة الأشجار، لكن الناس اتهموا عيونهم بالبوار" (ص.15).

"في كتابك السادس أثرت الغبار، وأعميت الأبصار، عن عجيب الأخبار والأسرار، فاستكثرت علينا مدح الأخيار. وما عرفناك للّؤم منساقا، ولا للحيف مشتاقا. وغاية مكاتبتنا اليوم أن تقرأ اللفظ، وتفهم القصد، فلا تُسلّم مقاليدك للهوى، ولا تدعه يركبك ركوب المطايا، ويسلبك أحسن المزايا، ولعمري فأفضل السجايا تخفيف الدق، وقول الحق". (ص.27).

"لقد وضعتمونا بكتابكم ذي العبارات الفالقة، والأطاريح الطالقة، بين المطرقة والسندان، وفتنة المريدين والخلاّن، فلا نحن نسكت عن إجابتكم فنسلم، أو نخوض في الرد الصارخ عنكم فنغنم، وكنا نريد أن يكون كتابكم لنا حديثا رائقا عن أخبار كورونا الفتاكة أو أحاديث الناس الأفاكة..." (ص.52).

وهذه الرسالة الرابعة عشرة التي اقتطفنا منها هذا المقطع كلها تقريبا بأسلوب مسجوع، والسجع أسلوب لافت في غالبية الرسائل، وأكثره فيه تكلف بيّن فرضته الغاية من كتابة الرسائل، والقصد إلى استعراض جمالية اللغة العربية وتذكير القراء بها.

والملاحظ أن فواصل هذه الأسجاع قصيرة لا تتعدى في الغالب أربع فواصل، ثم يعدل الكاتبان إلى تغييرها، ويستشف من هذا الإجراء غاية وخلاصة، فأما الغاية فهي أن الكاتبان لجآ إليه اجتنابا للتطويل الممل والإطناب الرتيب، وأما الخلاصة فهي الكشف عن قدرتهما على التصرف في أفانين القول واستعراض غنى معجمهما اللغوي الذي يدل على

علو كعبهما في اللغة العربية التي يتخصصان فيها بحكم ممارستهما لتعليمها.

2- الجناس:شكل الجناس، إلى جانب السجع وعناصر أخرى، أبرز مقومات وعناصر إنشائية الرسائل الأدبية "تشترك فيها الرسائل مع أجناس نثرية أخرى"[44]، بمعنى أنها كانت من المقاييس العامة التي المشتركة بين إنشائية الأشكال النثرية القديمة، والجناس ظاهرة صوتية تلعب دورا أساسا في منح النصوص جرسا موسيقيا يشد أسماع المتلقين، وإدراكا من الكاتبين لهذه الميزات التي يتمتع بها الجناس فقد ضمناه رسائلهما، وأغلبه جناس غير تام نمثل له بالنماذج الآتية:

"نقل أخبار الجائحة، ومعاينة دموع النائح والنائحة، ليعلم القوم كيف تنتقل العدوى السائحة" (ص.23)

"ولكن السيف سبق العذل، وحثنا على العجل، فكان لزاما أن نخوض المعمعة، ونقوض آراء السفهاء والإمعة" (ص.27)

"علموا حاجتهم الزائدة، وفراغ المائدة، فسخروا الدرهم الأبيض، وادخروه لليوم الأسود، يوم يباع الصوت، ويخفى السوط" (ص.36)

"إنما الحياة دول، ولنا عبرة في الأوائل والأول"" (ص.49)

"... تحت مظلة دكان موصود، إلى اليوم الموعود، وهو يرتدي بزة، ويبغي عزة" (ص.74)

2- الطباق: ومن المعلوم أن الطباق يحظى بدورين؛ الأول تزييني، والثاني دلالي، إذ بضدها تتميز الأشياء، ويحضر في الرسائل بصورتيه الموجبة والسالبة،والمقابلة أيضا، ومن أمثلة ذلك:

"في الزاوية مرتع روحي، ومكمن حزني وفرحي، الوقت كله لي، ولا وقت لي... مرة ألوذ كالمخبول إلى اغتيال الوقت في أشياء لا تسمن ولا تغني من فوائد" (ص.8)

"فلنحاول أن ننزل عن المراكب الصعبة، ونركب الركائب السهلة" (ص13)

"فهي ككل أمور الحياة فيها الغث والسمين، الهزيل والبدين. والألسنة كالسنان تشفي وتدمي، والكلام كالمصابيح ينير ويعمي" (ص.28)

"فهو لا يفرق بين الغني والفقير، وبين الكادح والوزير، وإنما يقطف الأرواح قسطا وجملة" (ص.18)

5- التوازي: أو الموازنة لون من ألوان الإيقاع الموسيقي الذي يحقق إمتاعا للمتلقي، وهو بذلك ذو وظيفة جمالية نابعة من وجود تناظر وتقابل بين مكونات الجمل، وهو من العناصر الإيقاعية التي يشارك فيها المنثور المنظوم، ومن مظاهر حضورها في الرسائل:

"فلا مواهب نرعاها، ولا مشاريع نتدارسها، ولا أفكار نؤلفها" (ص.11)

"لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة... بمن هم دون العلماء قدرا، ودون الجياد قدرة" (ص.22)

"فالزم زاويتك، وكسّر عودك، وقتّر مأكلك، واغضض بصرك" (ص.36)

"فإن كنت من أهل العقل والرجحان فاختر لنفسك ما يحييها، وإن كنت من أهل الجهل والطيش فاختر ما يشينها ويرديها" (ص.28)

" بطون طاوية، أياد خاوية، عيون ذاوية. لا تلفاز، لا جهاز، لا صبيب" (ص.29)

"كان حسن النية، هش البنية، يخطو إذا خطى بميزان، ويتحدث إذا روى باتزان"(ص.71)

3-2- شعريات أخرى

- الهزل: لم تخل الرسائل من طابع الهزل، وإن كان قليلا، لكنّه عمِل على تكسير رتابة جديّتها، وهو هزل مقبول من كاتبين عرفا كيف يصرفانه ويضعانه الموضع الذي يليق به، وكأني بهما يعملان بما ذكره ابن وهب (ت197هـ)[45] عن القدامى من قولهم: ""روّحوا عن القلوب، فإن لها سآمة كسآمة الأبدان"[46]. فالهزل إذن مقبول من الكتّاب العلماء والحكماء الذين يعرفون كيف يصرفونه، إذ يستعملونه "في أوقات كلال أذهانهم وتعب أفكارهم، ليستجموا به أنفسهم ويستدعوا به نشاطهم ويروّحوا به عن قلوبهم، خوفا من ملالتها وكلالتها"[47]. وهذا إمام البيان الجاحظ، هو الآخر قد جعل الهزل "مستراحا والراحة جماما"[48].وقد سبقت الإشارة إلى جزء من الهزل الذي تضمنته مقدمات بعض الرسائل وخلطته بالمعجم الصوفي، وفيما يأتي أمثلة أخرى:

يقول الأستاذ كروم لصاحبه: "فالزواج عن بعد صار متاحا، وصاحبه مرتاحا. لن يكلّف شواء ولا تفاحا. فاهتبل الفرصة، وأحسن مكان القرصة. وستجدنا إن شاء الله لك من الزائرين، والمؤيدين المناصرين"[49].

وقول المنيري لصاحبه: "كيف تتبدّى لك الدروس المسماة تعليما عن بعد؟ هذه الدروس التي حشدت لها الوزارة كل القواعد، وألزمت الأساتذة والتلاميذ بالمذكرات والمواعد، حتى أصبح الكل يرسل الدروس بالبلوتوث، وبعض الأساتذة في الشاشات كالليوث أو بائعي دواء البرغوث، ممن يخلطون دواء الحشرات، بالجبس والروث، وعباراتهم أوهى من بيت العنكبوت؟"[50].

وهزل الأستاذ كروم مع صاحبه بقوله: "سمعنا أنكم تأتون أعمال التصبين، وتطبخون الطاجين، ثم رأيناكم تدلّكون العجين"[51].

وكذلك ردّ صاحبه عليه بخصوص تأجيل الزواج: "وعزاؤنا في التأجيل والتأخير ما رأيناه من مآسي بعض الخلان، الذين أصبح حديثهم على كل لسان... فهذا فلان أصبح عبدا بعدما كان سيدا... فإذا بنا نراه في الأسواق يحمل الأطفال وزوجته تلبس "البودي" والسروال وتدّعي الاستقلال، وآخر قد جرّته الزوجة والأولاد إلى الاقتراض فبنى الرياض وأصلح المرحاض ولكنه دائما في انقباض... أما ما عبته من كنس وطبخ وعجين وتنقية السردين، فهذا ممّا أوصى به النبي الكريم"[52].

- العامية: على الرغم من المرجعية اللغوية التراثية للرسائل فإن صاحبيها لم يفوّتا فرصة مخاطبة قرائهم بلغة عصرهم من حين لآخر؛ فقد وظفا بعض المفردات والعبارات العامية، وهي قليلة على كل حال، لكنها ساهمت بشكل كبير في اعتقادنا في جمالية الكتابة، لا سيما وأنها تم اختيارها بعناية،فما أدته من معان قد لا يؤديها اللفظ الفصيح، فجاءت كالملح في الطعام كما يقال، وهما في ذلك يأخذان برخصة إمام البلاغة العربية

الجاحظ الذي يقول: "وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم، والشريف الكريم من المعاني"[53]، وفيما يلي جرد لأهم الألفاظ والعبارات العامية:

"يُقرْبل"، وهو فعل وصف به كروم الحجم الكبير للبلبلة والزعزعة التي أحدثها فيروس كورونا في العالم.

"التبلحيس"، وهو لفظ ممقوت في المجتمع، وصف به كروم ما ساد في الساحة الثقافية من تملّق ومحاباة لا تقوم على أساس الإبداع، وإنما على أساس لا أخلاقي.

"طار لحاسوبكم الفريخ"، وهي كناية عامية عمن فقد عقله، وقد وصف بها كروم حاسوب صاحبه بعد العطب الكهربائي الذي أصابه على إثره حريق في بيته.

"البودي"، وهو مصطلح وصف به المنيري بعض النساء اللواتي يتحكّمن في أزواجهن ويمسكن بزمام الأمر، وهو لباس معروف محجّم للجزء العلوي من الجسم يخالف لباس الحياء.

"البريتش" أو "البرتوش"، لفظ وصف به المنيري البيت الذي كان يسكنه صاحبه أيام الجامعة، ولهذا المصطلح استدعاءات عديدة خصوصا عند جيل الطلبة الأوائل، لدلالته على حياة الفقر والمعاناة.

"لا تتناطح عليها عنزتان" عبارة وظفها كروم دلالة على أن أمر إرجاع الزواج للقدر أمر مسلم به.

وبالمقابل لهذه العبارات العامية قدم الكاتبان ترجمة لطيفة لكلمة (فيس بوك) وهي كناش الوجوه.

إن الناظر في هذه الرسائل بروية سيدرك بسهولة أنها تحتفي بالأسلوب الرائق واللفظ الشائق احتفاء ظاهرا، بل يمكن القول إن هذا المسلك في بعض المواضع يكون مقصودا لذاته، ولعل الكاتبين سلكا في هذا السياق مسلك أصحاب المقامات الذين كان من أهدافهم إعادة الاعتبار للغة العربية واستعراض أفانين قولها وبدائع أساليبها، والحقيقة أننا في أمسّ الحاجة اليوم كذلك لمثل هذه الكتابة لعلها تُطلع القراء على جمال اللغة العربية ورونقها، وهذا ما أومأ إليه كروم بتحديده لأدوار الكاتب في زمننا، والذي ينبغي عليه أن ""يثير حسن الانطباع، وينبئ عن علو الباع، فيعيد الناسَ إلى فهم الألفاظ الزاهرة، ولغة قرآنهم الباهرة"[54]، في زمن أصبحت فيه العامية واللغات الأجنبية تنافس اللغة العربية وتحتل مكانتها في مخاطباتنا وكتاباتنا، بل إن بعضهم بلغت به الجرأة إلى اقتراح الدارجة لهجة للتدريس.

4- الكتابة ونقد الواقع:

إن هذه الرسائل التي اختار لها صاحباها نمط الترسل القديم بجميع مقوماته الشكلية والفنية، لم تنفصل عن واقعها الذي كُتبت فيه، بل إنها ابنته، منه انبثقت، وبسببه تألّفت، اتخذت منه مادّتها وموضوعها، فخاضت في تحليل قضاياه ومناقشة أعطابه من خلال العديد من المواضيع، ولا سيما بعدما كثرت سوءات هذا المجتمع في زمن الحجر الصحي، وفيما يلي إشارة إلى أبرز القضايا التي تناولتها الرسائل:

1- القضايا الاجتماعية:

يناقش الكاتبان كثيرا من القضايا الاجتماعية المتعلقة بالشأن العام، فالمنيري يصف لصاحبه مشهد المدينة خلال الحجر وقد عمّها الخراب؛ إذ لا

وجود للحدائق التي تجمّل منظرها، وما بقي فيها غير الحمير والبوم والكلاب، ممّا خلف في نفسه إحساسا بالآلام والقبح والأسر[55]، وكل ذلك بسبب السياسيين الذين لم يكن لهم أي اهتمام ببيئة المدينة. أما كروم فيوجّه سهام النقد إلى جشع بعض المؤسسات التي سارعت إلى طلب الدعم من "صندوق كورونا"، ومنهم أرباب شركات المدارس، ومنتجو البطيخ والدجاج، وينعتهم بأنهم "ممّن أعمى الطمع بصيرتهم، وأسال المال لعابهم"[56]، وهذا ما أقرّه عليه صاحبه في آخر رسالة؛ إذ يقول بأن الجائحة "كشفت لنا الجشع والطمع من بعض من يمتلكون العقارات ويركبون على أربع، فهذا الصندوق قد جعل الكل كالبهيمة السائحة، يطلب الدعم والمال، والامتيازات والغلال، وربما هذا مما جعل المغرب في تصنيف منظمة الصحة العالمية، في المراتب المتدنية"[57].

إنها إدانة لمجموعة من السلوكات الاجتماعية التي كانت تمارس داخل المجتمع المغربي في جو من التخفي، ولكن الجائحة عرّتها وجعلتها تظهر نهارا جهارا، يحركّها الطمع والجشع، وما في مدارهما من سلوكات قبيحة، تدعو إلى التوقف عندها، وإعادة النظر في وسائل التربية والتنشئة الاجتماعية التي تعتريها عدة أعطاب، والنتيجة هي ما نسمع ونرى من سلوكات مشينة يندى لها الجبين ويذوب لهاالقلب من الكمد.

2- القضايا الثقافية:

يشن الكاتبان حربا ضروسا على التفاهة التي أصبحت تلقي بظلالها السوداء على جميع المجالات، ويخصان بالذكر المجال الثقافي، فالمنيري في الرسالة الثانية يبدو مستسلما أمام هذه التفاهة التي كشرت عن أنيابها الشرسة؛ إذ يرى بأن تصانيف القدامى من قبيل الجرجاني والجاحظ وأبي حيان والمعري التي تزخر بها زاويته لم تعد تنفع في شيء "والسفه ضارب في القوم، مضرب السهم في الفؤاد، وسار في جل الأغراض سير الجواهر في الأعراض"[58]، ويصوّر ذلك في مشهد صريح يعري واقعنا الثقافي المأزوم، بلغة تطفح بالأسى والأنين الذي يكشف عن مدى تأثر الكاتب بهذا السفه، وحزنه على ما آل إليه الوضع، فيقول: "إن مآلنا في هذا الحجر الصحي فظيع فظيع، لأننا اكتشفنا فيه أننا وصلنا بفعل السفاهة المحيطة بنا، إلى قاع سحيق، فلا مواهب نرعاها، ولا مشاريع نتدارسها، ولا أفكار نؤلفها، وحسبنا لهذا الفراغ هاتف نحمله من الصباح للمساء، نصقل به سخافتنا"[59]. وهذا الوضع المزري جعل المثقف الحقيقي يبدو فيه كالغريب المستوحش؛ لأن الحياة فيه فقدت المعنى فتحولت إلى ما يشبه السجن بالنسبة إليه؛ "إن السجن الحقيقي يا محمد هو أن تعيش في فضاء بلا معنى، بلا طموح"[60].

ويرى الأستاذ كروم أن من واجب المثقف أن يحمل على عاتقه التشهير بهذه التفاهة وهذا السفه وأن يحاربهما، ويكشف مساوئهما للناس لعلهم يستيقظون من غفلتهم، يقول لصاحبه: "وأعلم – كما تعلم- أن الفراغ والسفاهة، مفسدة للمرء أي مفسدة، لهذا جهزنا الكاس، وبسطنا القرطاس، علنا نضرب أخماسا في أسداس، فيسمع قولنا عامّة الناس"[61]، وهذاالمبتغى لن يتحقق، في اعتقاده، إلا بمخاطبة هؤلاء الناس بما يفهمون ويعون، لكن دون النزول عن مراكب أساليب اللغة العربية كما وضعها القدامى؛ أي باللفظ القريب، والمعنى العجيب على حد تعبيره. إن المثقف الحامل لهمّ الثقافة، الساعي إلى دحر التفاهة، الطامح إلى قهر الدناءة ينبغي أن يكون عالما بلغته العربية، محيطا بمسالك قولها

الدانية، حتى إذا كتب كانت كتابته عمدة، واتّخذ أسلوبه قدوة، ومثالا يحتدى "يثير حسن الانطباع، وينبئ عن علو الباع، فيعيد الناسَ إلى فهم الألفاظ الزاهرة، ولغة قرآنهم الباهرة"[62].

ومما ينكر الكاتبان على الساحة الأدبية أيضا ما ساد فيها من التزوير والإغارة على إنتاجات الغير، والنفاق والمحاباة التي تتعارض مع مبادئ الإبداع الحقيقي والأخلاق العلمية، فأُدخل في الفن ما ليس منه فأفسده، وجنى عليه، وقلب موازينه؛ فأغلب النفوس أصبحت "تستلذ النفاق،ولا تفرّق بين الفنان والمنان"[63]، و"الفن في زماننا قد مُزج بالغش والتدليس، وكثرة "التبلحيس" حتى صار أمره عجيبا، وصادقه غريبا"[64]. ويضرب المنيري مثالا بالشاعر أحمد الولتيتي صاحب ديوان "بؤس أقل" "هذا الشاعر الذي لم تعترف به النوادي الأدبية ولا المجالس الفكرية... ولو كان ذا مال لبسطوا له المدائح العصماء والكلمات الشماء وأقاموا الأربعينية والخمسينية والستينية والمئوية... ولكن لأنه فقير فمن حقه النسيان والتجاهل"[65].

ومن مظاهر التفاهة التي يصوّرها الكاتبان، انسياق بعض المحسوبين على الثقافة وراء موجة التفاهة، وخوضهم الحديث في جميع الموضوعات دون مراعاة لاختصاص، وقد شكل الحديث عن فيروس كورونا مجالا هرفوا فيه بما لم يعرفوا، وتحدثوا بما لم يدركواعن غير علم، حديثا كله لغو وزعم، وهذا ما يؤكده هذا الوصف المُعرّي السافر الكاشف بلغة لاذعة "لقد كشف هذا الوباء، ضآلة عقول كثير من الرجال والنّسوان، ممن نزهناهم في الماضي عن أفعال الصبيان، فغدا كل من هب ودب يدلي بدلوه، ويعصف برأيه... ولو تفحّصت ما يرسله، لرأيت كلاما ذا مجاهل، فاسد المناهل"[66]، ومما يؤسف له كثيرا أن هؤلاء صار لهم أتباع كثر يصدّقون خزعبلاتهم، وهؤلاء يصفهم الكاتب بالقطعان.

3- القضايا التربوية: لم يفوّت الكاتبان، باعتبارهما ينتميان إلى الجسم التربوي، مناقشة بعض قضايا الحقل التربوي، وما عرفه من مستجدات في زمن الحجر، ولا سيما ما يتعلق بما عُرف بـ"التعليم عن بعد"، فهذا المنيري يسمي المشتغلين بالتعليم بـ"عصابة المعلمين"، ويعلّق عما ساد من دروس بعضها اعترته مجموعة من الأخطاء بقوله: "وبعض الأساتذة في الشاشات كالليوث أو بائعي دواء البرغوث، ممن يخلطون دواء الحشرات، بالجبس والروث، وعباراتهم أوهى من بيت العنكبوت"[67]، ثم يطلب من صاحبه وهو ابن الميدان ومفتش تربوي أن يحدّثه عن هذه الدروس.

فينبري هذا الأخير للدفاع عن الأساتذة معتبرا أن لقب "العصابة" لقب مسيء بالنظر إلى دلالته المعاصرة، ويرد عليه بأن الحكم على هذه الدروس لا ينبغي أن يكون عاما، والصواب يقتضي القول بأنها فيها "الغث والسمين، والهزيل والبدين"، ثم بعد ذلك يشرع في رصد منافع هذه التجربة وهي أربع[68]: الأولى أنّها شدّت الأطفال إلى البيوت وحمتهم من التيه والوباء وجمعتهم بآبائهم، وعلمتهم النظام. والثانية أنها كشفت معاناة بعض البوادي وافتقار أصحابها لأبسط ظروف العيش، من مأكل وتلفاز وشبكة للتواصل. والثالثة أنها كشفت تناقضات المجتمع في المدن، ما بين منعّم في بيت فسيح فيه كل ما يحتاج، وما بين من يعيش في صناديق ضيقة يحتاج فيها لكل شيء. والرابعة أنها أعادت الاعتبار للأساتذة والمعلمين الذين بدت مكانتهم واضحة ومهمة في زمن الشدة عكس التافهين.

وعلى الرغم من هذه المنافع فإن تجربة التعليم عن بعد، في رأي الكاتب، أبانت عن كثير من الأخطاء التي كشفت ضعف المستوى عند بعض الأساتذة، وهذا ما جعله يؤكد على حاجتهم للتكوين[69]. والحقيقة أن غياب التكوين المستمر في صفوف الأساتذة أمر خطير يجعلهم غير مواكبين، وغير متمكنين من كفايات التدريس التي تعرف تطورا متسارعا في الدول المتقدمة بفعل ما استجد من علوم وأبحاث تربوية.

وفي نقطة أخرى تناول المنيري غياب التحفيز والتشجيع في المجال التربوي، فصاحبه كروم الذي كان يشتغل بجدّ مع التلاميذ من خلال النوادي التربوية والمجلات المدرسية، وساهم في تفتق العديد من المواهب الإبداعية في صفوف تلاميذه، لم يجد غير الإجحاف والتنكّر، ولم يقابل بأي اعتراف أو تكريم ولو بشكل رمزي[70]، والحقيقة أن هذا الأمر يؤسف له كثيرا، إذ يتم، في الغالب تهميش نساء ورجال التعليم على الرغم من الدور المهم الذي يضطلعون في بناء كفاءات هذا الوطن ودعائمه، وبالمقابل يتم تكريم المغنين والرياضيين الذين لا ينفعون في الغالب إلا أنفسهم، ولا ينشرون إلا التفاهة.

خاتمة:

تشكل "رسائل من زمان كورونا" إضافة نوعية للساحة الثقافية المغربية المعاصرة، وهي مغامرة جميلة أقبل عليها الكاتبان؛إذ نأيا عن الأجناس الأدبية المهيمنة مستعيضين عنهابقالب الترسّل. وقد كسبا، في اعتقادنا، الرهان بامتياز، فاستطاعا إعادة كتابة جنس تراثي كانت له مكانة محفوظة معروفة بين فنون النثر العربي القديم، لكن بموضوعات عصرهما، فجمعت رسائلهما بين أصالة الشكل ومعاصرة الموضوع، واضطلعت بالوظيفتين الإنشائية الأدبية والتثقيفية النقدية معا، وبذلك يكونان قد أبانا على قدرة الأنماط النثرية القديمة على الانبعاث في عصرنا ومواكبته، وبالتالي العيش فينا؛ ليس عن طريق الاستنساخ والمحاكاة، ولكن من خلال إعادة كتابة فيها كثير من الجهد والاجتهاد.

إن ولع الكاتبين بالتراث حبا واطلاعا واستيعابا قد مكّنهما من إنتاج مأدبة لغوية فريدة من نوعها، تحتفي بالأسلوب العربي البليغ، الموشّى بأنواع البيان والبديع، يمكن اعتبارها اليوم مرجعا أساسا لكل مشتغل بالكتابة ليتعلم منها أساليب القول البليغ، وتراكيب النظم البديع، ولا سيما كل شاب لا يزال في الربيع، ويشبه مسعاهما هذا مسعى بديع الزمان والحريري في مقاماتهما. ولم يمنعهما هذا التوجه التراثي في الكتابة من مناقشة قضايا عصرهما، وإبداء رأيهما في مختلف المجالات؛ السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية. إنها كتابة ضد التفاهة قولا وفعلا.

وبذلك استطاع الكاتبان أن يبرهنا على أن الأنماط التراثية القديمة لا زالت قادرة على أن تحيا بيننا، وأنه مهما بلغت الأجناس الحديثة من تطور، فإن سحر نظيرتها القديمة لا يقاوم، كما برهنا على أن إمكانية الإبداع من داخل الثقافة العربية ممكنة من خلال إعادة كتابة أنماطنا التراثية التي لم تفقد بريقها بعد، وربما كان هذا المنحى التأصيلي طريقا يغنينا عن الجري وراء كل وارد من الضفة الأخرى، وسبيلا لإدراك قيمة ما نملك والاعتزاز به بدل ازدرائه وإهماله.

الهوامش والإحالات:

1 ظهرت الكتابة الرسالية في المجتمع العربي باعتبارها استجابة طبيعية لما عرفه المجتمع من تحولات في هياكله السياسية والاجتماعية، ولا سيما عند ظهور الإسلام الذي تبلور معه مفهوم الأمة، وما تلاه في العصور التالية من تحول إلى دول وأحزاب سياسية، مما جعل التواصل مع باقي الأمم والدول الأخرى حاجة ملحة، كانت الرسائل أبرز وسائلها، ويمكن القول مع شوقي ضيف "إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث"، ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، ط 7، (د.ت)، ص.460.

2 حسين نصار(2002)، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، ص.247.

3من الباحثين من عدّ كتابة الرسائل الفن الثاني في الأدب العربي، تالية للشعر مباشرة. (ينظر: حسين نصار(2000)، في النثر العربي، مكتبة الأسرة، ص. 93).

4 حسين نصار(2000)، في النثر العربي، مكتبة الأسرة، ص.88.

5 نفسه، ص.80.

6 شوقي ضيف(د.ت)، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، ط 7، ص.485.

7 نفسه، ص.463.

8 في العامية المغربية يستعمل الوصف "أزرك" بالكاف المعقودة للدلالة على البلادة وضعف التحصيل العلمي.

9 Fiction critique : « Entretien avec Marc Escola », Vacarme 2011/1 (N° 54), pp.42-43.

10LIBERTE, n°319, Mars 2018, p.7.

11 محمد كروم ومنير المنيري(2020)، الراصد الوطني للنشر والقراءة، ط1، ص.6.

12 نفسه، ص.13.

13 شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص .464

14محمد كروم ومنير المنيري، رسائل من زمان كورونا، ص .35

15نفسه، ص.20.

16نفسه، ص.22.

17 نفسه، ص.10.

18 نفسه، ص.33.

19 صالح بن رمضان(2007)، الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، دار الفارابي، ط2، بيروت، ص.78.

20 شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص.337.

21أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصورها العربية الزاهرة، (د.ت)، المكتبة العلمية، بيروت، ص-ص. 39-37.

22رسائل من زمان كورونا، ص.35.

23نفسه، ص.35.

24نفسه، ص.50.

25 نفسه، ص.49.

26 نفسه، ص.56.

27 نفسه، ص.25.

28 حسين نصار، في النثر العربي، ص.90.

29 زكي مبارك (2013)، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص.106.

30 حسين نصار، في النثر العربي، ص.79.

31رسائل من زمان كورونا، ص.5.

32نفسه، ص.24.

33نفسه، ص.32.

34 نفسه، ص.36.

35 نفسه، ص.42.

36 نفسه، ص.67.

37 نفسه، ص.84.

38 نفسه، ص.27.

39 نفسه، ص.34.

40 نفسه، .23.

41 صالح بن رمضان، "أدب الرسائل في التراث العربي"، علامات في النقد (السعودية)، ع.28، مج.7، 1998، ص.418.

42 نفسه، ص.419.

43 أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1968، ص.207.

44 صالح بن رمضان: الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، ص.10.

45 ابن وهب : نقد النثرالمنسوب خطأ لقدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ، ص-ص 137-138.

46 نفسه، ص 137.

47 نفسه، ص 137.

48 الجاحظ : البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، ط 5، (د.ت)، ص 1.

49 رسائل من كورونا، ص.43.

50 نفسه، ص.25.

51 نفسه، ص.42.

52 نفسه، ص-ص.45-46.

53الجاحظ: البيان والتبيين، (د.ت)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 145/1.

54 رسائل من زمان كورونا، ص.18.

55 نفسه، ص.9.

56 نفسه، ص.80.

57 نفسه، ص.83.

58نفسه، ص.11.

59نفسه، ص.11.

60نفسه.

61نفسه، ص.12

62نفسه، ص.18.

63 نفسه، ص.20.

64 نفسه، ص.22.

65 نفسه، ص.61.

66 نفسه، ص.19.

67 نفسه، ص.25.

68 نفسه، ص-ص.28-29.

69 نفسه، ص.29.

70 نفسه، ص.39.

قائمة المصادر والمراجع

ابن وهب، 1402هـ، نقد النثرالمنسوب خطأ لقدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت .

أحمد زكي صفوت، (د.ت)، جمهرة رسائل العرب في عصورها العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت .

أنيس المقدسي، 1968، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط4، بيروت.

الجاحظ أبو عثمان، (د.ت)، البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، ط 5.

الجاحظ أبو عثمان، (د.ت)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.

حسين نصار، 1422هـ/2002م، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة.

حسين نصار، 2000، في النثر العربي، مكتبة الأسرة.

زكي مبارك، 2013، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

شوقي ضيف، (د.ت)، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، ط 7، مصر.

شوقي ضيف، (د.ت)، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، بمصر .

صالح بن رمضان، "أدب الرسائل في التراث العربي"، علامات في النقد (السعودية)، ع.28، مج.7، 1998.

صالح بن رمضان، 2007، الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، دار الفارابي، ط2، بيروت.

محمد كروم ومنير المنيري، 2020، رسائل من زمان كورونا، الراصد الوطني للنشر والقراءة، ط1.

Fiction critique : « Entretien avec Marc Escola », Vacarme 2011/1 (N° 54), pp.42- 43.

LIBERTE, n°319, Mars 2018.